مادة القرآن

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾

[الإسراء: ١٠٦]

قلت : أهلاً بك ومرحباً . اجلس فقد أوحشتنى .

قال : وأنا مشتاق للولوج والسير . أما اتفقنا أن نلج باب الإعجاز ونسير فيه بعد أن أشرفنا على تخومه؟

قلت : بلى . وإنى لأشد منك رغبة فى الولوج وأكثر شوقاً للسير .

فما باب الإعجاز الذى تريد أن تلج منه إليه؟

قال : مادة القرآن .

قلت : مادة القرآن؟!

قال : نعم . فأنا الآن أصدق أن القرآن معجزة ولكنى لا أفهم كيف يكون الكلام معجزة فو طاقة البشر وقدرتهم وكل الناس يقول، وكلهم يمكنه الكلام ويأتى فى كلامه بالبليغ الساطع وبالمبين الناصع؟

قلت : أما أن كل الناس تتكلم فنعم . . ولكن ليس كل كلام ككل كلام، وإلا لاستوى شعر أمير الشعراء مع مبتذل الكلام فى الأسواق من أحقر الحقراء . أليس هذا كلام وذاك كلام؟

قال : ما زلت غير مطمئن .

قلت : فلنتامل المسالة بروية . قل لى : كم يوجد من العناصر فى الأرض؟

قال : فذلك شئ كثير لا أحصيه وتنوع وتعدد لا يخفى .

قلت : فكم يبلغ الاختلاف بينها؟

قال : يبلغ ما بين السماء والأرض . فمنها الردئ الذى لا قيمة له والنفيس الذى يتقاتل الناس من أجله، ومنها الهش المتكسر والصلب، ومنها الرقيق والصلد، ومنها الخامل والمشع .

قلت : فمم تتكون كل هذه العناصر على تباينها واختلاف ما بينها؟

قال : من الجزيئات .

قلت : ومم تتكون الجزيئات .

قال: من ذرات والذرات من نواة وكهارب (إلكترونات).

قلت: أتختلف الكهارب فى الذهب عنها فى الرصاص؟

قال: لا تختلف فى نفسها ولكن تختلف فى عددها وترتيبها حول النواة فى مدارتها، وعدد المدارات فى ذراتها، والعلاقة بين الذرات فى جزيئاتها.

قلت: إذا فمادة الرصاص الأولى هى هى مادة الذهب.

قال: نعم.

قلت: ومع ذلك فإن كون مادة الرصاص كمادة الذهب لا يرفع الرصاص إلى الذهب ولا ينزل بالذهب عن عرشه إلى رداءة الرصاص.

ابتسم قائلاً: إذاً فالذى يهب القرآن إعجازه هو وضع حروفه فى كلماته فى جمله فى سوره فيه كله.

قلت: تماماً كما يهب الذهب بريقه ونقائه وصفاءه وسلبه لعقول الناس وضع كهاربه فى مداراته فى ذراته فى جزيئاته.

قال: ومع ذلك فهناك من البلغاء والفصحاء من يأتى فى كلامه بالعبارة النفيسة والكلمة البراقة التى تبرق كبريق الذهب.

قلت: نعم! فمن البشر من يأتى فى كلامه بالعبارة البليغة والجملة المبينة التى تبرق كالذهب، ولكنك إذا تفصحتها بعناية ووضعتها تحت مجهرك لبانت لك حقيقتها من حقيقة الذهب الخالص. فإن أوفت بالمعنى فاتها إيجاز اللفظ وجمال المبنى، وإن كانت موجزة قصرت فى المعنى، وإن أمتعت وجدانك استنكفها عقلك، وإن رضى عنها عقلك جفتها نفسك، وإن اجتمع فيها كل هذا: المعنى فى إحكامه، واللفظ فى جماله، والوجدان فى متعته، والعقل فى حكمته، والبريق من كل جهة لكانت جملة واحدة أو اثنتين أو بضع جمل على الأكثر فى الكلام كله أو الكتاب كله، ولن تكون بعد ذلك إلا كالنحاس يملك من الذهب بريقه ولا يملك معناه، ويفقد يوماً بعد يوم نقاءه وصفاه.

ولن تجد كلاماً أو كتاباً يجتمع فيه من أوله إلى آخره إحكام المعنى وجمال المبنى وموسيقا النظم والأثر فى النفس وإشعاع المعانى من كل وجه فى انسجام وفى غير تضارب بين أول وآخر إلا القرآن؛ فكأنه سبيكة واحدة من الذهب الخالص نفاسة وقيمة، وجمالاً وبريقاً، وخلوداً وبقاءً، أو كأنه على اختلاف معانيه وتباين مراميه وسعة كلماته وتعدد أغراضه وتباعد ما بين نجومه جملة واحدة قيلت مرة واحدة أقيمت على ميزان دقيق؛ إن غيرت فيها أو بدلت، أو قدمت أو أخرت اختل واضطرب. فكل حرف وكل كلمة فى مكانها إن بدلتها أو أسقطتها تغير المعنى أو اهتز المبنى ولا يسكن موضعها ويطمئن إلا بعودتها إليه.

قال: ربما كان كلامك صحيحاً. ومع ذلك فمادة القرآن التى هى حروف وكلمات هى مادة مبسوطة أمام العرب جميعاً بل أمام أهل الأرض قاطبة يؤلفون بينها كيف شاءوا ويأتون بالبليغ والمبين مما قد يحمل الجاهل المعاند على وضعها إلى جوار القرآن ويزرع الهواجس والوساوس فى نفوس أهل الإيمان.

قلت: عدت إلى .....

قاطعنى قائلاً: دعنى أتم كلماتى. فلو كانت المعجزة من مادة لا يقدر عليها أهل الأرض ولا يصل إليها علمهم لارتاحت النفس من الوساوس وشفيت من الهواجس.

فتأمل معى وانظر: إن المرء إذا رأى الناقة تخرج من صخرة أو العصا تنقلب حية أو الميت يقوم من موته أيقن أن ذلك شئ فوق طاقة البشر أجمعين، ولا يكون إلا بقدرة مطلقة لا يحدها قانون ولا يعطلها ناموس. فلا يمكن لبشر أن يخرج حياة من جماد أو يعيد الحياة بعد الممات مهما كان علمه وقدرته، ولا يمكنه أن يطاول مثل هذه المعجزة ولو من بعيد، لا ولا يدعى مجرد الاقتراب منها. فهذه معجزة لا يملك إنسان مادتها ولا تنتاب النفس الهواجس والوساوس فى حقيقتها.

وأما القرآن فإن العقل يرى العرب شهدوا له وعجزوا عنه وخضعوا له فيوقن

بإعجازه ثم لا تلبث النفس أن تنتابها الهواجس وتنتازعها الوساوس إذا تفكرت فى مادة هذه المعجزة التى هى مبذولة فى يد البشر جميعاً لا يقصرون عنها ولا ترتفع عنهم.

قلت: هون عليك. فلو تفكرت فى الأمر وتدبرته ملياً لرأيت المعجزة ومادتها بين يدى البشر وأمام أنظارهم وطوع ألسنتهم أثبت للإعجاز وأبين للقصور وأذهب للوساوس والهواجس من النفس.

قال متلهفًا: كيف؟ كيف؟

قلت: أولاً: إن القرآن مؤلف من مادة بين أيديهم هى الحروف والكلمات والعبارات.

قال: نعم!

قلت: فإن ذلك أثبت لإعجازه وأبين لقصورهم. ألا ترى أنه لو كانت المعجزة من غير حروفهم وكلماتهم لقالوا: هذا شئ لا نملك مادته ولا نعرف كيف الوصول إليها. فلو امتلكنا وعرفنا لجئنا بمثل ما به جئت.

ولوجدوا حينئذ من اللجاجة ما ينفرون به من الإقرار بالعجز كما قال القرآن: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ** ﴾ [فصلت: ٤٤]. أما والمعجزة من حروفهم وكلماتهم ومادة اللغة التى هم أهلها وأرقى الناس فيها كمالاً فإن ذلك أفحم لهم وأدل على أن علو المعجزة وقدرتها إنما جاءت ممن ألف بين حروفها وأودع الإعجاز فى كلماتها وآياتها. فكأنه يقول لهم: هذه حروف كحروفكم وكلمات ككلماتكم، فالفوا بينها كالقرآن إن استطعتم. فإن لم تفعلوا فاعلموا أن السر ليس فى الحروف والكلمات وهى مادة لا تتغير، ولكن السر فى الذى اختار لكل حرف موضعه ولكل كلمه مكانها.

فالمعجزة فى القرآن وائتلاف مادته لا فى المادة نفسها.

قال: كلامك وهبنى بعض الراحة.

قلت: فإليك ثانياً: أرأيت إلى ما ذكرت من معجزات، فإن قلت لامرئ بها وحدثته عنها فقال لك: إنى غير مصدق لما تقول ولا أومن به حتى أراه بعينى فماذا تقول له؟

قال وهو يمرر أصابعه فى رأسه: أقوله له: تلك معجزة حدثت وانتهت وإنما انتهى خبرها إلينا.

قلت: فإن قال لك: ومن أدرانى أن هذا خبر صادق؟ إنى لا أصدق حتى أرى الناقة تخرج من الصخرة بعينى وأرى العصا تنقلب حية أمامى؟

قال: فذلك معاند لا سبيل لإقناعه ولا أمل فى إيمانه. فكيف أريه حدثاً وقع من آلاف السنين؟

قلت: تذكر أنك أنت كنت معانداً ولم تزل إلا قليلاً.

ابتسم، فقلت: أرأيت كيف أن المعجزة حين تكون حدثاً تنحصر بزمان قوعها ومكان وقوعها ومن شاهدوها، ثم تصير بعد ذلك خبراً يُروى يصدقه من يصدقه ويكذبه من يكذبه، ولا تبلغ ممن تريد إقناعه وتطلب إيمانه بها إلا أن يعجزك هو بدلاً من أن تعجزه أنت؟

قال: هذا طبيعى. فكيف يمكن لى أو لغيرى أن يحتفظ بحدث ويجعله يتكرر عبر آلاف السنين أمام عينى كل من يريد رؤيته؟

قلت: فإذا نظرت إلى القرآن وتأملت ما بث الهواجس والوساوس فى نفسك لرأيته هو سبب الاطمئنان وباعث الإيمان، فإن مادة المعجزة فى القرآن حروف وكلمات من حروف البشر، فهى باقية خالدة عبر الدهور والعصور. فمعجزة الحس فانية ومعجزة القرآن باقية، ومعجزة الحس بائدة وحروف وكلمات القرآن خالدة.

وأما ثالثاً.

قال: وهل هناك ثالثاً؟

قلت: نعم هناك ثالثاً ورابعاً وكما شئت.

فأما ثالثاً: فانظر إلى ما ذكرت من معجزات وقل لى: لو ذكرتها هذه المرة لا لمعاند كما تقول، بل لعالم فلم يعاند أو يجحد، ولكنه قال لك: فإنى أريد أن أتأمل هذه المعجزة وأخضعها للدراسة وأختبرها بعقلى.

فربما كانت حدثاً طبيعياً وألبسه الناس ثوب المعجزة، فالناس فى تلك العصور الخوالى لم تكن تملك من العلم والعقل ما تحكم به على ما تراه من أحداث وظواهر، فيحيلون كل ظاهرة معجزة ويُلبسون كل حدث إعجازاً.

قال: فتلك أصعب من سابقتها. فإذا كنت لا أستطيع أن أجعل المعاند يرى المعجزة، فكيف آتى بها للعالم ليتأملها ويضعها تحت منظار علمه وعقله؟

قلت: فهات مادة القرآن التى بثت فى نفسك الهواجس والوساوس وتأمل الحكمة فى أنها من حروف وكلمات البشر، فستعرف - عندها - أنها ما كانت كذلك إلا لتظل متدفقة بالإعجاز فى كل عصر؛ يتأملها المتأمل، ويخضعها للدراسة والاستقراء العالم المؤمن ليزداد يقيناً والمعاند الشاك ليهتدى، فتُرى الناظرين إليها فى كل عصر وجهاً جديد من الإعجاز لم يدركه سابقه، ويقصر فهم السابق فيها عما يستنبطه منها لاحقه. ولو كانت مادة القرآن - المعجزة من غير الكلمات والحروف لكانت صماء جامدة، لا جديد منها ولا سبيل للعقل إليها. وهل للعقل سبيل إلا لما يخضعه لنظره ويكون من مادة البشر. فمعجزة الحواس واحدة قاصرة ومعجزة القرآن متفجرة متجددة بتجدد العقول ورقيها.

ها! أما زالت تنتاب نفسك الوساوس وتساورها الهواجس؟

قال: فماذا عن رابعاً؟

قلت: رابعاً: حين تنقلب العصا حية أو تخرج الناقة من الصخرة أو غيرها مما ذكرت فبم يدرك الإنسان مثل هذه المعجزة؟

قال: بعينه وبصره.

قلت: أى بحواسه؟

قال: نعم.

قلت: وما الذى يدركه منها بحواسه؟

قال: يدرك أنها خرق للناموس الكونى ومعجزة لا يقدر عليها البشر.

قلت: ومع ذلك فأنت ترى أن العلم تقدم وصار يأتى كل يوم بالعجائب تبهر الأبصار والأسماع حتى لم يعد الإنسان يعجب لرؤية جديد لم يألفه أو غريب لم يعرفه. بل أصبح الإنسان ينتظر كل يوم عجيبة ويتوقع كل ليلة نادرة.

قال: ذلك صحيح. فإن البشرية بلغت من تقدم العلم ورقى العقل ما يأتى لكل جيل بما لو رآه سابقة لعده خرقاً لكل ناموس، فهو عجيبة من العجائب أو غريبة من الغرائب.

قلت: لذلك فمعجزة الحواس وإن ظلت معجزة لارتفاعها عن طاقة البشر وقدرتهم إلا أن بريقها فى النفس ورنينها فى السمع والبصر يخفت كل يوم لأن الغرائب أصبحت من العادات والعجائب أصبحت من المتوقعات.

فقل لى: بم تدرك معجزة القرآن وتعرفها؟

قال: أضعه أمامى وأنظر فيه وأحاول أن أتلمس وأخلص إلى سر الإعجاز فيه.

قلت: إذاً فأنت تدرك المعجزة فى القرآن بعقلك، بل تدركه بشحذ عقلك واستثارته وتنبيهه واستنفاره إلى أقصى طاقته والوصول به إلى غاية كماله.

وعقل الإنسانية يترقى عصراً بعد عصر، فكلما مر عصر زاد درجة، كان التاريخ سلم يرتقى العقل درجاته. وهو يزداد كل يوم نضجاً وكمالاً، فكلما ازداد نضجاً وكمالاً ازداد قدرة على استقراء معجزة القرآن وفهمها، واستكشاف أسرارها وإدراك سر إعجازها. فمعجزة العقل ما يزيدها رقى البشرية إلا كمالاً ولا يزيدها رقى العقل إلا إعجازاً.

وإليك ملحق رابعاً.

قال ضاحكاً: ملحق رابعًا: وهل انتهت الأعداد حتى تجعل لها ملاحق؟

قلت: فإن معجزة القرآن لما كانت تخاطب عقل الإنسان، به يدركها وبه يفهمها، فالقرآن معجزة تخاطب الانسان بما شرف به على سائر المخلوقات، فهى تخاطب الإنسان حال رقيه إلى مرتبة الإنسان الكامل أو المخلوق الكامل.

وأما ما ذكرت من معجزات تخاطب حواس الإنسان وتبهرها فإنها تخاطب ما يملكه الإنسان وما يملكه غيره ويشترك فيه مع بقية خلق الله الأدنى.

فقل لى: كيف كان للعقل أن يدرك المعجزة أو يفهمها إلا لأنها من مادة يستطيع أن ينظر فيها ويتأملها؟ وهذه المعجزة التى تتفجر ينابيع من الإعجاز فى كل عصر برقى العقل وتقدم البشرية، كيف كان يمكن أن تكون متجددة متدفقة تزداد كل يوم بريقاً وإعجازاً إذا كانت من مادة لا تصل إليها معرفة البشر؟ فيكون رقيهم فى واد والمعجزة فى واد آخر، وغايتها أن تكون - حينئذ - كتحفة على الرفوف؟

فما أخبار الهواجس والوساوس الآن؟

قال فى سعادة: قد رضيت.

قلت: فإليك خامساً!

قال: خامساً! أليس لأعدادك من نهاية؟

قلت: أرأيت إلى ما ذكرت من معجزات أهى دليل وبرهان أم منهج وشريعة؟

قال: بل هى دليل وبرهان على منهج وشريعة؟

قلت: فإذاً المنهج والشريعة شئ والمعجزة الدليل شئ آخر منفصل عنهما.

قال: نعم.

قلت: وأما القرآن فإنه منهج وشريعة، وهو أيضا دليل هذا المنهج ومعجزة

هذه الشريعة. فالقرآن هو المنهج ودليله، وهو الشريعة ومعجزتها. ففيه توحيد بين الشريعة والمعجزة، وفيه صلة رابطة بين المنهج ودليله. وما كان ذلك إلا لأن مادته من حروف وكلمات. فأيهما أرقى فى ميزان العقل وأجمل فى ميزان النفس: انفصال المعجزة عن شريعتها أم توحدها؟

قال مفكراً: إن الفلاسفة يقولون: إن التوحيد والربط هو إحدى الرغبات العقلية. والعلماء يقولون: إن التوحيد له جمال فى النفس حتى إن علماء الفلك والطبيعة ليسعون جاهدين - من أجل الراحة النفسية والكمال العقلى - إلى توحيد الكون بإيجاد قانون واحد يفسرون به حركة الكون كله وقوة واحدة تنبثق منها القوى الأربع المشهورة فى الطبيعة.

قلت: فمادة القرآن التى وحدت بين الشريعة والمعجزة والمنهج ودليله هى سبب كماله فى العقل وجماله فى النفس.

قال: فمادة القرآن هى معجزته وسر إعجازها فى توليفها وتأليفها؟

قلت: نعم.

قال: إذاً فهيا بنا! فإنى أرانا قد اجتزنا الباب وقد اشتقت للنظر فيما وراءه، والسير فى أنحائه وأبهائه، ومعرفة السر فى بنيانه، وفهم المخبوء فى لبناته.

قلت: فهيا بنا نتأمل لبناته يا صديقى العزيز.

* * *